بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان
العدد ١ (خريف وشتاء ١٤٣٠ - ١٤٣١ هـ. ق/ ١٣٨٨ هـ. ش)، ص ٧٩ - ٨٨

التصوير الحرفي
رمز جودة الوصف عند ابن‌خفاجة الأندلسي[١]

علي‌باقر طاهري‌نيا*
جواد رنجبر**

الملخص

إن ابن‌خفاجة أديب الأندلس وشاعرها وهو صنوبري الأندلس، وبما أن الشعر إلا أقلّه راجع إلى الوصف، فهو من أعلام الشعراء؛ إذ كان رأس الشعراء الوصّافين. ودراسة أسباب نجاحه في فن الوصف ورمز جودة الوصف تقدّم للآخرين منهجاً واضحاً قد يتّبع. و«التصوير الحرفي» مصطلح وضع ليدل على أدق الأشعار الوصفية وأفضلها وأجودها. وبعبارة أخرى قد يمكن تحويل قصائد الوصف إلى صور مرسومة لكن الأفضل والأجود من هذه القصائد هي التي تكون أقرب من لوحة مرسومة وأسهل في الرسم.

و«التصوير الحرفي رمز جودة الوصف عند ابن خفاجة» مقالة تتناول موضوع الوصف، ثم تذكر عناصر كالعناصر المكونة للوصف، وهي الخيال، والملكة، والشعور، والحوار المفكر؛ كما تذكر ثلاثة عوامل كالعوامل المولدة والمسببة للوصف وهي فطرية الوصف، والطبيعة الساحرة، والحياة اللاهية. وحاولت المقالة كي تقدم دراسة تحليلية عن رمز جودة الوصف عند ابن‌خفاجة الأندلسي.

المفردات الرئيسية: ابن‌خفاجة، الشعر، الوصف، التصوير

المقدمة

إن تاريخ الأدب العربي يشتمل على عهود تاريخية أدبية مختلفة، منها الأدب العربي في الأندلس أو عهد الأندلس، وهو عهد طال أمده لأكثر من ثمانية قرون، ووقع موقع الدراسة من قبل الدارسين والباحثين، وانتهت دراسة أغلبية الباحثين إلى أنها طور

---

١. تاريخ التسلم: ١٣٨٥/١٢/١٥ هـ. ش (٢٠٠٧/٣/٦م)؛ تاريخ القبول: ١٣٨٦/٤/٢٦ هـ. ش (٢٠٠٧/٧/١٧م).

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلي سينا في همدان
** ماجستير في اللغة العربية وآدابها

تقليد ومحاكاة للشرق والمشارقة. فهؤلاء يرونه عهداً مستقلاً عن تاريخ الأدب العربي، ومن ثم يثبتون له ميزة التقليد والمحاكاة. هذا وإنه يبدو عضواً لهيكل الأدب العربي؛ فلا يقاس العضو مع الهيكل، بل يحلّل دوره ومكانته. فمن أراد أن يقارن الأدب الأندلسي، فليقارن بينه وبين عهد من عهود الأدب العربي في المغرب حتى يصدر حكماً عادلاً.

إن الأدب العربي في الأندلس يشهد على أن فن الوصف تطور وازدهر أثناء هذا العهد ازدهاراً يثير الإعجاب ويلفت الأنظار. فكم يذكر اسم ابن‌خفاجة كرائد فن الوصف في الأدب العربي خاصة في الأندلس! وهو الذي نوّع فن الوصف وروّجه في الأغراض الشعرية المختلفة.

مهما كان الأمر ومهما اجتمع من الأسباب، فإن ما أنشده ابن‌خفاجة في فن الوصف احتلّ مكانة مرموقة في الأدب العربي. فمن هنا يستحق الدراسة والتحليل كي ينكشف رمز النجاح وسر الجودة في هذه القصائد.

بناءً على هذا إن هذه الورقة قد تكون وراء دراسة أسباب هذه الجودة والجمال، وبيان أسباب نجاح رأس شعراء الطبيعة الوصّافين. أما الذي قد بدا خلال البحث والدراسة، فهو ظاهرة سميّت بـ«التصوير الحرفي» كرمز الجودة.

والتصوير الحرفي يعني أن الشاعر قد امتاز بسبب أنه ينشد الشعر، وكأنه يحمل ريشته في مدار الحروف ويرتبها كي يكمل رسماً رائعاً له مواصفات الرسم الفني البديع.

و«التصوير الحرفي» مصطلح لعله يصبح مصطلحاً أدبياً نقدياً بتكراره في مثل هذه الورقة وما شابهها من الدراسات الأدبية، ويقوم مقام الرسم بالكلمات ويجد مكانه من بين المصطلحات الأدبية؛ إذ له دقة في التعبير وإيجاز في الكلام وتلاحم في البيان أكثر من «الرسم بالكلمات».

فهذه الورقة قد عالجت الموضوع بدراسة حياة ابن‌خفاجة وأدبه، وأنواع الوصف وعناصره، كي ينتهي إلى نتائج أدبية تدل على سرّ الجودة والجمال في فن الوصف عند ابن‌خفاجة الأندلسي.

نظرة في حياة ابن‌خفاجة الأندلسي وأدبه

هو أبوإسحق إبراهيم بن أبي‌الفتح بن عبدالله خفاجة الهواري الأندلسي. ولد في جزيرة «شقر» من أعمال بلنسية، شرقيَ الأندلس سنة «٤٥٠هـ»، وتوفي سنة «٥٣٣هـ» (ابن‌خلكان، د.ت، ص ١٤؛ والزركلي، ١٩٧٩م، ص ٥٧). وقيل لبلدته جزيرة لأن نهر شقر محيط به. وإذا كان لموطن الولادة والنشأة تأثير في تكوين الشخصية، ولاسيما الجانب الذهني منها، فليس لنا أن ننكر أثر «شقر» ـ مولد ابن‌خفاجة ـ في نزعته الأدبية وخياله الشعري. فقد كانت كما وصفها ياقوت أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وشجراً وماءاً.

إن ابن‌خفاجة علَم من أعلام الشعراء العرب المجددين، وهو بحق شاعر الأندلس و«**وصّافها وابن طبيعتها الساحرة**» (الخفاجي، ١٩٩٢م، ص ٥٠٣). وقال عنه المقرّي التلمساني (١٩٩٨م): «**إنه أديب الأندلس وشاعرها**» (ص ٢٣١).

إن الشاعر مخضرم؛ إذ أدرك عصري ملوك الطوائف والمرابطين في الأندلس «**وإنهما أزهى عصور الأندلس حيث قامت دولة الأدب والشعر، وغصّت مجالس الأمراء بالشعراء**» (الخفاجي، ١٩٩٢م، ص ٥٠١).

إن ابن‌خفاجة قد جرّب عود نفسه في إنشاد الشعر في مختلف الأغراض الشعرية من المدح والعتاب والرثاء والشكوى والغزل إلى الوصف. «**إنه عاش للفن وابتعد عن السياسة**» (*فنون الأدب العربي*، د.ت، ص ٩٩)، فشغف بدياره وفضّله على الدنيا كلّها، فأقبل

على الطبيعة وعناصرها والتذّ بمشاهدها ملء العين والقلب حتى سبق القصب في فن الوصف وأبدع فيه تعبيراً وتصويراً، وأدخل وصف الطبيعة في المدح والرثاء ووصف المرأة والخمرة.

لقد امتاز أدب ابن‌خفاجة أولاً باستقلال فنون وصف الطبيعة. فمن أبرز مواصفات شعر الوصف عند ابن‌خفاجة هو الإكثار في وصف الطبيعة ومن ثم استقلال فنون وصف الطبيعة. إن ابن‌خفاجة لم يكتف بوصف الطبيعة كصورة واحدة وكلّ لا يتجزّأ، بل أخذ يصف كلاً من مظاهر الطبيعة على حدّها، فمن ثمّ ظهرت النهريات والجبليات والدولابيات والزهريات و....

ثانياً باصطباغ باقي الأغراض الشعرية بفن الوصف. إن الأغراض الشعرية تتنوع تنوع الأسلوب والمضمون وقلما تجتمع الأغراض في قطعة واحدة. هذا وإن ابن‌خفاجة رغم الالتزام باستقلال الأغراض لم يلتزم هذا بالنسبة إلى فن الوصف، كأنه كان يرى الوصف أوسع من أن يحدد في غرض خاص، بل شاملاً لجميع الأغراض من المدح والفخر والرثاء و....

وبهذا السبب لم يمل عن الوصف في موقف الرثاء والبكاء، ومزج البكاء بوصف رائع يلائم المقتضى، فصوّر الدموع الجارية على الخدود كالمياه الجارية في الأنهار، وشبّه حال أبدان المحزونين المضطربة بهزّة الأغصان، وأنينهم وإجهاشهم بالبكاء بصوت قنبرة نائحة:

في كُـلِّ نـادٍ منـكَ رَوضُ ثَنـاءٍ وبكـلِّ خـدٍّ منـك جـدولُ مـاءِ
ولِكـلِّ شـخصٍ هـزَّةُ الغُـصنِ النَّـدي غِـبَّ البُكـاءِ ورِنَّـةُ المُكّـاءِ

(ابن‌خفاجة الأندلسي، ١٩٩٤م، ص ١٦)

وأسلوبه يتجمع فيه قوة الخيال وسعته، وسلاسة العبارة مع ميله أحياناً إلى الألفاظ الغريبة وإلى المعاني الخفية وإلى شيء من التكلف. وكان يعنى بالموضوع الذي يصوره وينظر إليه نظرة فاحصة تساعده على دقة التعبير عن معانيه، حتى سمي بشاعر شرقي الأندلس، كما سمي بالشاعر البستاني، ولقّبه المقرّي التلمساني (١٩٩٨م) بـ«**صنوبري الأندلس**» (ص ٣٤٢)، لشدة اعتنائه بوصف الطبيعة.

الوصف وأنواعه

اختلف الأدباء في تحديد فن الوصف وتعريفه تعريفاً جامعاً للأوصاف ومانعاً للأغيار، مع أن الكثيرين يرون أن الوصف إلى جانب الغزل والفخر والمدح و... فن من الفنون الشعرية له أسلوبه وتعابيره ومواصفاته، لكن هناك من قارن بين الوصف والفنون البيانية من الاستعارة والتشبيه والكناية كأنه من قبيلها.

يشير ابن‌رشيق القيرواني (٢٠٠٢م) إلى الفرق بين الوصف والتشبيه قائلا: «**الفرق بينهما أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء وأن التشبيه مجاز وتمثيل**» (ص ٤٣٩). وبهذه جعل القيرواني الوصف كطريق من طرق إلقاء المعنى الواحد لا فناً شعرياً يستخدم هذه الطرق البيانية. ثم جاء غازي طليمات (د.ت)، وأثبت هذا الرأي للقدماء وقال: «**نظر الأقدمون في الوصف فوجدوه يستخدم فنون البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية، ففرّقوا بين الوصف والأدوات الفنية التي يستخدمها الشاعر**» (ص ٦٤).

مهما كان الأمر، فكاد الأدباء أن يتفقوا على أن الوصف فن وغرض شعري، وهو «إنشاء» يراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس أو زمان للقارئ أو المستمع، وفي العمل الأدبي يخلق الوصف البيئة التي تجري فيها أحداث القصص (مجدي، والمهندس، ١٩٨٤م، ص ٤٣٢).

أضف إلى هذه الرؤية المحددة لإطار الوصف ودلالته أن هناك من وسّع دائرة الوصف بحيث يشمل فنوناً شعرية متنوعة. فالوصف ـ على هذا الأساس ـ إن كان للحبيب وأوصافه فهو «الغزل»، وإن كان للممدوح وفضائله فهو «المدح»، وإن كان للمهجوّ وقبائحه فهو «الهجاء»، وإن كان للنفس ومفاخرها فهو «الفخر»، وإن كان للصيد وأحواله فهو «الطرد»، وإن كان للطبيعة وعناصرها فهو «الوصف» المطلق. فبيت القصيد «**أن الشعر إلا أقلّه راجع إلى الوصف**» (القيرواني، ٢٠٠٢م، ص ٤٣٩).

وهذا تعريف رآه صاحب *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب* خير تعريف للمصطلح، لكن لا يسعنا أن نشير إلى كلمة «إنشاء» في مطلع التعريف، حيث يذكرنا نوعي الأدب وهما الأدب الوصفي والأدب الإنشائي؛ والأول يشمل تاريخ الأدب والنقد الأدبي وما إلى ذلك، والثاني يشمل الشعر والرسائل الأدبية وما يشبههما. أما العبرة في أن صاحب المعجم قد جعل الوصف من قبيل الإنشاء حيث قال بأن الوصف هو الإنشاء، مع أنه قسيمه المنطقي؛ حيث الأدب إما إنشائي وإما وصفي، والوصف الذي يقع قسيم الإنشاء يختلف عن الوصف الذي يكون قسماً منه.

والذي يبدو لنا كحلٍّ للمشكلة أننا نرى فن الوصف من قبيل الأدب الوصفي حيث له صورة حقيقية في الخارج؛ فليس الإنشاء من لا شيء، بل محاكاة لشيء في الخارج. ثم نراه من قبيل الأدب الإنشائي؛ إذ الشاعر خالق ومنشئ بقوة الخيال والموهبة. وقيل: «**إن الوصف انطباع المشهد المحسوس في النفس، وهو تمثله وتخيله والانفعال والتأثر به**» (شامي، ١٩٩٤م، ص ٥).

ينقسم الوصف على أساس المستوى إلى ثلاثة أنواع وهي: «الوصف النقلي»، و«الوصف المادي»، و«الوصف الوجداني». أما الأول فهو المرحلة الأولى من مراحل الوصف حيث يتنازع الشاعر الظاهرة ليفيض عليها في حيز الألفاظ والصور، وهو ما يسمى «الوصف للوصف» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ٩)، كما يطلق عليه «الوصف الكلاسيكي». وأشعار الجاهليين حافلة بهذا الوصف؛ نحو قول ابن‌خفاجة (١٩٩٤م) في وصف القوس وهو آلة رمي النبل:

عوجاءُ تُعطَفُ ثمّ تُرسَلُ تارةً فكأنما هيَ حيّةٌ تَنسابُ
وإذا انحنَت والسهمُ منها خارجٌ فهي الهلالُ انقضَّ منه شهابُ

(ص ٣٤)

والقوس عند جذبها لرمي السهم تكون نصف دائرة، فشبهها عند ذلك بالحية عند انطوائها، والهلال قبل استكمال استدارته. انظروا، كيف أحسن تشبيه النبل عند خروجه من القوس حال انطوائها بالشهاب انقضّ من الهلال!

أما الوصف المادي فـ«**هو الذي لا يقارن فيه بين مشهد وآخر، بل بين فكرة أو حالة نفسية من جهة ومشهد حسي أو صورة مادية من جهة أخرى؛ والصورة في هذا النوع من الوصف تستقيم على وحدة التأثر النفسي بين فكرة في الذهن والحواس**» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ٩). فالوصف المادي انتقال من المعنوية إلى المادية؛ نحو قول ابن‌خفاجة (١٩٩٤م) واصفاً الأرق:

أبى البرقُ إلا أن يحنَّ فؤادٌ ويَكحَلَ أجفانَ المحبِّ سهادُ

(ص ٧٩)

فشبّه الشاعر الأرق ـ وهو فكرة ـ بالكحل الذي هو شيء مادي حسي.

أما الوصف الوجداني فـ«**هو الذي يتخطّى الشاعر حدود الظاهرة ويُنيط بها مفهوماً شعرياً جديداً هو امتداد من المفهوم العام أو تأويل له وهنا تغدو الظاهرة شبيهة برمز**» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ١٢)، وفيه يعبّر الشاعر عن ذاته من خلال المشهد، فهو تصوير على حدقة الخيال وشاشة الضمير (السابق).

فشاعر الوصف الوجداني يعبّر عن ذاته ويعطي الطبيعة الجامدة الحركة والحياة والنشاط. فالوجود عنده كائن حيّ له مواصفات الحياة من الضحك والنطق والألم والفرح والطرب و...؛ نحو قول ابن‌خفاجة (١٩٩٤م) واصفاً حسد السماء:

ألا يا حبَّذا ضَحِكُ الحُمَيَّا ... بحانتِها، وقد عَبَسَ المساءُ
وأدهمَ من جيادِ الماءِ مُهرٍ ... تَنازعُ جُلَّه رِيحٌ رَخاءُ
إذا بدتِ الكواكبُ فيه غرقى ... رأيتَ الأرضَ تحسُدُها السّماءُ

(ص ١٣)

نظر الشاعر إلى السماء فتأثر برؤيتها وانثنى لوصفها، فهو لم يعبّر خلاله عما رآه فحسب، بل عبر مما رآه إلى ما شعر به. فالضحك والعبس هما من ذات الشاعر، والحسد اندمج في نفس السماء التي تحسد الأرض.

أما الفرق بين الوصف النقلي والوصف الوجداني فهو:

أن الأول بحدقته يراقب الأشياء، ويقدّر ما يبصره من شكلها وأوصافها تقديراً شائعاً علمياً، والثاني ينصرف إلى تأويل الظاهرة. ثم إن فضيلة الوصف النقلي هي في دقته وصحة تشابيهه، بينما تبدو فضيلة الوصف الوجداني في نزعته الداخلية وتوغّله في ذات الشاعر وذات الأشياء. فالأول يعنى بتجسيد الشكل، والثاني بالمعنى وراءه (عيد، ٢٠٠٦م، ص ٨٣٩).

عناصر الوصف عند ابن‌خفاجة الأندلسي

الف) العناصر المولّدة

قبل أن أتناول تحليل عناصر الوصف، لابدّ أن أشير إلى أهم مصدر إلهام أوحى إلى الشعراء الأندلسيين موهبة الوصف، وجعلهم متميزين في هذا الفن الشعري. نعم، إن الطبيعة الأندلسية هي مصدر الإلهام والإيحاء. «**كان للطبيعة الساحرة أثرها الكبير في خصب عقول الأندلسيين ورفاهية حسّهم ورقّة تصويرهم وسعة خيالهم. فالطبيعة الأندلسية هي المعلم الأول الذي ألهم شعراءه هذه الصور البديعة**» (سلامة، ١٩٨٩م، ص ٨٩). فللطبيعة أثرها في الأخلاق والتذوق والمهارة حيث «**المرء مسوق بحكم طبعه إلى التكيّف بالبيئة وعواملها**» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ٢٢٥). ومظاهر الطبيعة الأندلسية تثير تلطّف الأذواق وتؤدي إلى التلذذ بمظاهر الجمال ومباهجه وصفاته، مع أن للطبيعة دوراً رئيسياً في ازدهار فن الوصف في الأندلس، لكنها لم تكن هي السبب الوحيد في هذا المجال. فإن هناك أسباباً تتسبّب عن هذا الازدهار والتطور، وولدت قصائد وصف معجبة رائعة.

فكلمة السّرّ في سبب شيوع فن الوصف في الأندلس وازدهاره وتطوره تبدو في وجود مثلث كامل الأضلاع والزوايا. فلو أصبح لأيّ مكان وفي أيّ زمان هذا المثلث المولد للوصف، لكان في مرتبة الأندلس في وصفه المتطور والمزدهر.

أما الأول من الثلاث فهو فطرية الوصف كحب ذاتي يكمن في وجود الإنسان، ويترصد فرصة يلبي نداء ذاته. «**يميل الإنسان فطرياً إلى أن يصف ما يثير مشاعره وإذا كان مبدعاً يستطيع أن يقدم وصفه في صورة فنية**» (آذرشب، ١٣٨٢هـ. ش، ص ٥٧). أما الثاني من الثلاث فهو الطبيعة الساحرة الفاتنة، وكما ذكرنا آنفاً أنه هو المعلم الأول الذي يوحي الشعراء موهبة الوصف ويلهمهم كيفية خلق الصور المعجبة الفاتنة. والثالث هو الحياة اللاهية. وهذه هي الثالثة للأثافي التي تكمل مثلث فطرية الوصف والطبيعة الساحرة بحياته اللاهية. «**لقد عكف الشاعر الأندلسي يصوّر الحب واللهو والخمر في إطار الطبيعة مقدِّماً لنا لوحات رسم فيها الأصباغ والألوان**» (سلامة، ١٩٨٩م، ص ٨٩؛ والخفاجي، ١٩٩٢م، ص ١٣١).

إذن هذا هو المثلث الوصفي :

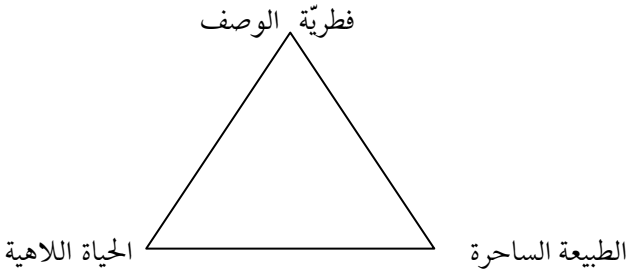

فما نراه من وصف رائع معجب في شعر ابن‌خفاجة ليس إلا مولوداً لاجتماع الأسباب الثلاثة التي كوّنت مثلثاً في عهد ابن‌خفاجة الأندلسي وذاته. فكلما لم يكمل المثلث في عصرٍ ومصرٍ لا يزدهر فن الوصف الشعري بل يشكو فقد أرضية لازمة للتطور والازدهار.

ب) العناصر المكونة للوصف المعجب

فلو وجد المثلث الوصفي سيكون الصور الوصفية الممتازة عند وجود مربع العناصر الذي يساعد الشاعر في خلق الرسم والصور الفنية المثيرة والمؤثرة.

فالعناصرالمكونة للوصف هي :

عنصر الشعور، «**وهو المحرك الأول للوصف الوجداني**» (عيد، ٢٠٠٦م، ص ٨٢٨) ؛ فهذا عنصر يذكرنا بتسمية الشاعر بالشاعر ؛ إذ بشعوره يشعر ما لا يشعره غيره ؛ فمشاعره أقوى، وتأثره أشد من غيره، تذيبه حرارة غموم الآخرين ويفرحه سرورهم. وابن‌خفاجة الشاعر الوصّاف لا يكتفي بالمشاهد الخارجية، بل يعبر منها إلى البواطن والروح، فيرى بقلبه ويشعر بشعوره فيصور ما رآه القلب والمشاعر.

وعنصر الخيال، وهو العنصر الذي يفصل بين النظم والشعر كما يفصل بين النثر والشعر. و«**الخيال هو الغرفة المظلمة التي تحول الظلال الشعرية المموهة إلى صورة ذات شكل وحدود ومعنى فهو يترجم الشعور ويجسده**» (عيد، ٢٠٠٦م، ص ٨٣٨). فالشاعر بشعوره يرى ويتراءى له ثم يصور لنا ويجيد ما رآه بقوة الخيال الواسع الذي يتميز به الشعراء المتميزون. فانظروا إلى الشاعر الفارسي كيف يستخدم الخيال والشعور كي يصور لنا حالة «كوز» ساذج قد لا يعجب فاقدي الذوق والموهبة الفنية :

كان هذا الكوز مثلي عاشقاً وإلهاً في صدغ ظبيٍ أغيَد
وأرى عروتَه كانت يداً طوّقتْ جيدَ حبيب أجيَد

(الخيام، ١٩٨٩م، ص ٩٣)

و«الملكة» (شامي، ١٩٩٤م، ص ٦) في ملاحظة الأشياء، والرؤية النافذة في المشاهد، والتأمل في التفاصيل والحركة والأوصاف. وكما ذكر آنفا رأينا أن الشاعر إن كان له ملكة وشعور إلى جانب الخيال سيرسم صورة معجبة تكشف عن البواطن والزوايا الكامنة.

و«**الحوار الواعظ المفكر**» (السعيد، ١٩٨٠م، ص ١٢٠)، وهو عنصر ينشئه الشاعر بقوة التشخيص حيث يعطي عناصر الطبيعة الحياة والوجود ويجعل البيئة صدر أمّ حنون أو حضن حبيبة يشعّ محبة ووفاء.

عنصر الحوار المفكر يعطي الصورة الحركة والحياة ومهما اشتدّ الميزة، تكثر الحركة وتنشط الحياة ؛ نحو قول ابن‌خفاجة (١٩٩٤م) عندما يصف الجبل يثبت له أوصاف الشيخ الوقور، والرجل المفكر في العواقب، ويرى له النطق رغم الصمت والسكوت، فهو ينطق بلسانه فليعتبر أولي الأبصار والاعتبار:

وقورٍ على ظَهرِ الفلاةِ كأنه طوالَ الليالي مُفكر في العواقبِ
أصَختُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ فحدّثني ليلُ السُّرى بالعجائبِ

(ص ٤٨)

ثم يتكلم على لسانه ويحيي ذكرياته من كونه ملجأً وموطناً ومعبراً ومظلاً، وشكواه من لطم الرياح وزحمة البحار:

وقال ألا كم كنتُ ملجأ فاتكٍ وموطنَ أوّاهٍ تبتَّلَ تائبِ
وكم مرّ بي من مُدلجٍ ومؤوِّبِ وقال بظلّي من مطيّ ومركبِ

(السابق)

إن الجبل في صورة ابن‌خفاجة يئنّ ويبكي مما يصيبه دائماً من ظعن الأصحاب وتوديعهم، وسهر الليالي ومراعاة الكواكب:

ولاطَمَ من نُكَب الرّياح مَعاطِفي وزاحَمَ من خُضرِ البحارِ غَواربي
فما كان إلا أن طوتهم يدُ الرّدى وطارت بهم ريحُ النّوى والنوائبِ
فحتى متى أبقى ويظعنُ صاحبٌ أودِّعُ منه راحلاً غيرَ آيبِ؟
وحتى متى أرعى الكواكبَ ساهراً فمِن طالعٍ، أخرى الليالي وغاربِ؟

(السابق)

إنه يترحم مولاه متضرعاً ويمدّ إليه يد العون والعناية، ثم يتلقى عبرة يعبر عنها التجارب بلسانها، وأخيراً ينهي القصيدة بقوله «إنا مِن مقيم وذاهب»، ويعترف بأن القدر والمصيرة يسببان عن إقامة البعض وذهاب البعض:

فَرُحماك يا مولايَ، دعوةَ ضارعٍ يَمُدُّ إلى نُعماك راحةَ راغبِ
فأسمَعَني من وعظه كلَّ عبرةٍ يُترجمُها عنه لسانُ التّجاربِ
فسلّى بما أبكى، وسرّى بما شجا وكان على عهدِ السُّرى خيرَ صاحبِ
وقُلتُ وقد نكّبتُ عنه لِطِيَّةٍ سلامٌ، فإنا من مُقيمٍ وذاهبِ

(السابق)

وعنصر الطبيعة هو المكوّن للتجارب الشعرية. لكل أحد تجارب في حياته، فلكل شاعر تجارب تختص به. التجربة الشعرية تمتاز بالدقة والشعور والعاطفة وتكون وراء التأثير خلافاً للتجربة غير الشاعرية التي تكون ساذجة بسيطة. فالطبيعة بعناصرها المختلفة من أهم عناصر الوصف في الأدب الاندلسي. «**الطبيعة كائن حي يحبّها الشاعر وتحبّه، يناجيها وتناجيه. بصحبتها تطيب الساعات، وبأفيائها تحلو رقائق العيش**» (الحاوي، ١٩٩٨م، ص ٣٦).

فهذا مربع العناصر المولدة للصور الفنية الشعرية المؤثرة والمثيرة:

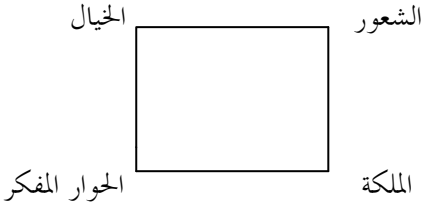

أحسن الأوصاف وأفضلها

بناءاً على ما جاء في المثلث الوصفي ومربع العناصر من الطبيعي أن نبحث عن معايير تدلّنا على أحسن الأوصاف وأجملها. يقول ابن‌رشيق القيرواني (٢٠٠٢م): «**أحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع**» (ص ٤٤٠). ورأى قدامة بن جعفر (د.ت):

> **إن الوصف إنما ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم وصفاً من أتى في شعره أكثر المعاني التي الموصوف بها مركب فيها، ثم بأظهرها فيه وأولاها به حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته** (ص ١٣٠).

ورأى يحيى شامي (١٩٩٤م) أن أفضل الوصف «**ما كان إيحائياً يسمو به صاحبه عن الواقع المادي المحسوس المنقول دون أن يغرق في الابتعاد الكلي عن حقيقة الشيء ليقع في اللاشيء**» (ص ٥)؛ لكن الذي خير الكلام لِقلّته ودلالته هو «**أبلغ الوصف ما قلّب السمع بصراً**» (القيرواني، ٢٠٠٢م، ص ٤٤٠)؛ وإذا كان أبلغ الوصف ما قلّب السمع بصراً فأحسن الوصف وأجمله ما قلّب القصيدة إلى لوحة رسم.

فابن‌خفاجة الأندلسي لنجاحه في تقليب السمع بصراً، أصبح رأس الشعراء الوصّافين في الأدب الأندلسي والشرقي معاً؛ فهو رسّام يغمس ريشته في حبر عناصر الطبيعة ويشبه ما يرى ويصوره؛ فالقصيدة هي اللوحة، والقلم هو الريشة، والحروف والكلمات هي الأجزاء والألوان والأطلال. قارنوا بين الأبيات التالية والصورة المرسومة إلى جانبها كي يبدو مستوى المشابهة بين الرسم والتصوير الحرفي الذي يمثل خير أنموذج للوصف الشعري:

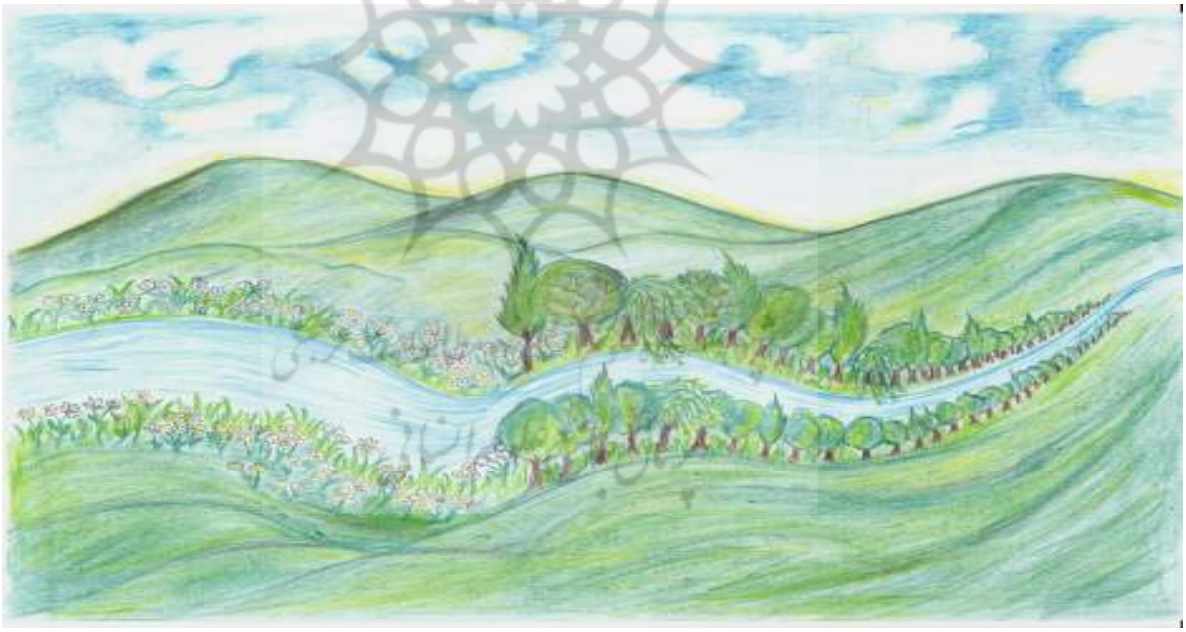

لله نهرٌ سالَ في بطحاءِ ... أشهى ورود اً من لَمى الحسناءِ
متعطّفٌ مثلَ السوار كأنه ... والزهرُ يكنفه مَجرُّ سماءِ
قد رَقَّ حتى ظُنَّ قُرصاً مُفرغاً ... من فِضَّةٍ في بردةٍ خضراءِ

(ابن‌خفاجة الأندلسي، ١٩٩٤م، ص ١٢)

فالصورة المرسومة تصوّر لنا البيت الثاني في جانبها الأيسر، والبيت الثالث في جانبها الأيمن.

وغدت تحفُّ به الغصونُ كأنها هُدبٌ يُحفُّ بُمقلةٍ زرقاءِ
والريحُ تعبَثُ بالغصون وقد جرى ذهبُ الأصيلِ على لُجَينِ الماءِ

(السابق)

«**إنما الشعر صناعة من النسج، وضرب من التصوير**» (الجاحظ، ١٩٨٨م، ص ١٣١)، ولكنه يمتاز في جوانب منها بأن الشاعر قد يذكر الكلام ويعبر عن أحاسيسه وإعجابه خلافاً للراسم الذي يرسم ولا يصرّح بالكلام والأحاسيس. أضف إلى ذلك أن التصوير الحرفي قد يحدث باستقلالية الأبيات دون القصيدة بحيث يرى القارئ كلاً من الأبيات رسماً واحداً مستقلاً.

أخيراً قد جعلنا صورة حرفية إلى جانب صورة مرسومة كي تسهل المقارنة للمخاطب؛ فليدقق النظر ويرسل النظر إلى دقائق الصورتين: الصورة الحرفية والصورة الرسمية.

النتيجة

١ ـ أرضية ظهور فن الوصف وشيوعه وازدهاره تبتني على وجود المثلث المولد للوصف المعجب أعني فطرية الوصف، والطبيعة الخلّابة الساحرة، والحياة اللاهية.

٢ ـ عناصر الوصف أربعة تشكل مربعاً مكوناً للصور الفنية الشعرية أعني الخيال، والشعور، والملكة، والحوار المفكر.

٣ ـ خير أنموذج لأفضل وصف شعري هو الذي يمكن أن يطلق عليه بالتصوير الحرفي؛ إذ يسهل تحويله إلى لوحة رسم لها دقة وجمال، وهو الذي امتاز به الشاعر الأندلسي الوصّاف، ابن‌خفاجة الأندلسي.

***

المصادر والمراجع

١. آذرشب، محمدعلي. (١٣٨٢هـ. ش). ***تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي***. تهران: سمت.

٢. ابن‌خفاجة الأندلسي، إبراهيم بن أبي‌الفتح. (١٩٩٤م). ***ديوان ابن‌خفاجة*** (شرحه وضبط نصوصه وقدّم له عمر فاروق الطباع). بيروت: دار القلم.

٣. ابن‌خلكان، أحمد بن محمد. (د. ت). ***وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*** (تحقيق إحسان عباس). (ج ١). بيروت: دار الثقافة.

٤. الجاحظ، عمرو بن بحر. (١٩٨٨م)، ***الحيوان*** (تحقيق محمد عبدالسلام هارون). (ج ٣). بيروت: دار اليقظة العربية.

٥. الحاوي، إيليا سليم. (١٩٩٨م). ***فن الوصف وتطوره في الأدب العربي*** (ط ٢). بيروت: دار الكتاب اللبناني.

٦. الخفاجي، محمد عبدالمنعم. (١٩٩٢م). ***في الأدب الأندلسي: التطور والتجديد***. بيروت: دار الجيل.

٧. الخيام، عمر بن إبراهيم. (١٩٨٩م). ***رباعيات*** (تعريب أحمد الصافي النجفي). بيروت: مؤسسة البلاغ.

٨. الزركلي، خيرالدين. (١٩٧٩م). ***الأعلام*** (ج ١). بيروت: دار العلم للملايين.

٩. السعيد، محمد مجيد. (١٩٨٠م). ***الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس***. بغداد: وزارة الثقافة والإعلام.

١٠. سلامة، محمدعلي. (١٩٨٩م). ***الأدب العربي في الأندلس: تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه***. بيروت: الدار العربية للموسوعات.

١١. شامي، يحيى. (١٩٩٤م). ***أروع ما قيل في الوصف***. بيروت: دار الفكر العربي.

١٢. طليمات، غازي؛ والأشقر، عرفان. (د. ت). ***الأدب الجاهلي: قضاياه وأغراضه وأعلامه وفنونه***. حمص: دار الإرشاد.

١٣. عيد، يوسف. (٢٠٠٦م). ***دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام***. بيروت: المؤسسة الحديثة للكتاب.

١٤. ***فنون الأدب العربي: الفن الغنائي الوصف*** (يشترك في وضع هذه المجموعة لجنة من أدباء الأقطار العربية). (د. ت). القاهرة: دار المعارف بمصر.

١٥. قدامة بن جعفر. (د. ت). ***نقد الشعر*** (تحقيق وتعليق محمد عبدالمنعم الخفاجي). بيروت: دار الكتب العلمية.

١٦. القيرواني، الحسن بن رشيق. (٢٠٠٢م). ***العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*** (قدم له وشرحه وفهرسه صلاح‌الدين الهواري). بيروت: دار ومكتبة الهلال.

١٧. مجدي، وهبة؛ والمهندس، كامل. (١٩٨٤م). ***معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب*** (ط ٢). بيروت: مكتبة لبنان.

١٨. المقرّي التلمساني، أحمد بن محمد. (١٩٩٨م). ***نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*** (تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي). بيروت: دار الفكر.

پرتال جامع علوم انسانی